ناجى العلى

الذكرى الـ ١٧ لرحيل حنظلة

تمر بنا هذه الأيام الذكرى السابعة عشرة لاغتيال رسام الكاريكاتير الفلسطينى "ناجى العلى" الذى اغتيل فى صباح يوم ٢٩ أغسطس من ١٩٨٧ على يد أحد أعداء الحرية، بعد أن أطلق عليه طلقة غادرة من كاتم صوت أسود ليسقط شهيداً فى شارع "آيفز" فى لندن قبل أن يصل إلى مكتبه فى صحيفة "القبس الكويتية" حيث آخر مستقر له فى جانب العمل المضنى فى المجال الإبداعي، ويحمل جسده الطاهر إلى مقبرة "بروك وود" فى لندن، حيث قبره الذى يحمل الرقم (٢٣٠١٩٠).

ولم يكن "ناجى العلى" مجرد رسام كاريكاتير، بل كان مثقفاً وطنياً كبيراً سخر كل جهده الفنى وخطوطه المميزة التى لا تخطئها العين لخدمة وطنه فلسطين، وشغل نفسه ليل نهار بهذه القضية وجعلها قضية حياته، فقد كان أعظم رسامى المدرسة الحديثة فى فن الكاريكاتير السياسي.

هذا الفن الذى أصبح بريشة ناجى سلاحاً محارباً ضد كل أشكال الظلم والطغيان.

obeikandl.com

تسلح بالثقافة الجادة

وفى قرية الشجرة بشمال فلسطين ولد "ناجى العلى" فى عام ١٩٣٧، وبين دروب وأزقة هذه القرية الصغيرة تربى وجدانه على حب البسطاء، وبدأت عينا الطفل "ناجى" تلتقط كل ما حولها من تفاصيل صغيرة، وتخزنه بالذاكرة ليعيد رسمه من جديد بخطوطه البدائية الطفولية، فقد عشق الفن منذ نعومة أظافره، وأعاد تشكيل العالم من خلاله وكبر "ناجى" وكبر الحلم معه فى أن يصير رساماً، وحصل على دبلوم الميكانيكا، ولكنه تفرغ تماماً للدفاع عن وطنه من خلال رسوماته الكاريكاتورية التى تسخر من سارق الأرض والعرض، والذى ساعد "ناجى" على أن يكون متميزاً هى ثقافته الجادة التى تسلح بها التى أرسى بعضاً من قواعدها بالصورة واللون والمضمون والفكر، واللغة والابتكار، والإفادة من الحدث والمعلومة وكل ما يجرى حوله، حيث غدا بنضاله المشروع وإبداعه الحقيقى "سيد القصيدة المرسومة" التى سجل من خلالها أحلام المقهورين، عندما كان يخرج بين البلاغة والأطياف والسحب والناى والوشاح والأجنحة ورائحة القهوة والغربة والاغتراب ورائحة أرض فلسطين، التى كانت تنطلق مع كل صباح فى هيئة مناضل يقض مضاجع القتلة المأجورين وسارقى الأرض والثروات وكرامة الإنسان.

تنقل "ناجي العلي" في العمل صحفياً ورساماً بين دول عربية عدة، وعرفته الزنازين لأكثر من مرة ونجح في أن يكون مدرسة خاصة في الرسم والتعبير، وقد وصفته إحدى الصحف الأمريكية في مقال خاص عن مسيرته الإبداعية، "إذا أردت أن تعرف رأى العرب في أمريكا فانظر كل صباح إلى رسوم ناجي العلي". ولقد كانت هذه الرسوم بفعل حسه المرهف ومن وحي خياله الفريد الخصب لتتحول بسرعة إلى شخصيات وحركة وصراع وكأنها تعيش في "مسرح على الورق"، عمل "ناجي" في جريدة الخليج الإماراتية في عام ١٩٨٥، وأصدر العديد من الكتب، وحصل على عدة جوائز عالمية من رسومه المتحررة، وقدم خلال حياته القصيرة أكثر من ٥٠ ألف عمل، استطاع من خلالها أن يكون وحده جيشاً في مواجهة الحرب الصهيونية ضد كل ما هو عربي وإنساني وشريف.

سيد القصيدة

وقد قيل عنه في مقال نشر في مجلة "الشروق" الإماراتية تحت عنوان "ناجي العلي سيد القصيدة المرسومة"، المتفحص مجمل أعمال ناجي يلحظ مقدرته على كسر حاجز الخوف بين الناس والسلطة، كما أنه أدخل الحركة الموسيقية إلى الخطوط والأفكار، من تفرده بالبساطة والوضوح وعمق الارتباط بالتراث الشعبي والفلكلور، وبروز ظاهرة الحوار الجدلي في

اللوحة بين الصور والكلمات، حوار بديع لا تجده إلا فى الدراما حينما تتشابك الأشياء، وغالبا ما نجح "ناجى" فى أن يضع القارئ داخل كادر الصورة التى يرسمها وأحياناً يحوله إلى بطلها فى زمن عزت فيه البطولات واختفت من بين جوانبه الشخصيات الأسطورية ونادرا ما نصادف كاريكاتيرا لناجى يخلو من الطرافة والمرارة والسخرية والإسقاط، وأحياناً استخدام عنصر الصمت، لأن الصمت عنده كان أبلغ من الكلام، وقد أطلق البعض على هذه المرحلة من حياته مرحلة العذاب الفردي، والأرجح أن دخول ناجى هذه المنطقة، منطقة التمزق والبحث عن الخلاص، إنما اقترن بنضال الشعب الفلسطينى وثورته من أجل التحرير.

والمتتبع لحياة "ناجى العلى" القصيرة – نسبياً – يجدها حافلة بالمرارة والعذاب والنضال والغربة والتشريد وربما توجها بذلك الموت الجميل الذى أضفى عليه هالة من الكبرياء والرفض وهذا واضح من خلال رسوماته، ومن خلال الطفل "حنظلة" الذى كانت بصمته الواضحة فى كل لوحاته المقامة، وبعد رحيل هذا العملاق، قامت الدنيا ولم تقعد حتى الآن حزناً على هذا البطل، الذى كان بحق أكثر بطولة وشجاعة من الأبطال أنفسهم الذين كانوا على خط النار، واحتفت به جميع الأوساط الأدبية والثقافية والفنية المصرية والعربية وكتب فيه الشعراء أجمل القصائد ويحضرنى فى هذا المقام بيت من الشعر قاله أحد الشعراء

– لا يحضرنى اسمه – فى رحيل ناجى : "اصعد فموطنك السماء" وكتب الشاعر الكبير عبد الرحمن الأبنودى ديواناً كاملاً بعنوان: "الموت على الأسفلت" أهداه إلى ناجى العلى، وقدم الفنان نور الشريف فيلم "ناجى العلى" ليقدم شخصية ناجى ببراعة وتمكن، وكثير ما كان يردد "ناجى" فى أحاديثه الصحفية: "حددت مهمتى أن ألتقط أنفاس المخيم والجنوب وحتى النيل لكى أعبر عن ذاتى ورفضى من خلال الناس".

رحم الله الفنان القدير ناجى العلى الذى ما زال يحيا فى وجدان وروح كل عربى رغم مرور كل هذه السنوات على رحيله "فهو كالبركان الذى لا يخمد" – كما وصفه أحد الكتاب – ولن يخمد مادامت لوحاته موجودة تقض مضاجع الصهاينة كلما طالعوها، وأقول: أنت حىٌّ وكلنا أموات، يا ناجى!!

★ نشر فى جريدة القاهرة ٢٦ أكتوبر ٢٠٠٤